جغرافيو العرب

وسوريا[1]

لنلّينو زيادة

كانت مسألة ادارة البلاد المفتوحة وتنظيمها من أمهات المسائل التي شغلت العرب . وهي مسألة كثيرة التعقيد لارتباطها بالطريقة التي تمّ بها الفتح . لذلك اهتمّ أصحابُ السير والمغازي ورواةُ الأخبار ببحثها ليتقرر مقدار الجزية والخراج . ومن ثمّ كان وصف البلدان جزءاً من عمل المؤرخين . لكن الامر لم يلبث أن اختلف ، فاستقل كتّابٌ بوصف الاقاليم ودرسها . وكانت المحاولات الاولى تدور حول التعرف الى البلاد وطرقها وخراجها . لذلك كان كتاب (المسالك والممالك) ، وهو من أقدم الكتب الجغرافية العربية ، تقريراً عن جباية المملكة العباسية في أواسط القرن الثالث . وليس من المصادفات ان مؤلفهُ كان متولي البريد والخبر بنواحي الجبَل بفارس . وكذلك (كتاب الخراج وصنعة الكتابة) ، لقدامة بن جعفر ، كان بين الطرق والمسافات فضلاً عن قيمة جباية المملكة

وقد شجع الاسلامُ الكتابة الجغرافية من ناحيتين أخريين : أما الاولى فجاءت عن طريق الحج . فالحج فريضة على المسلم ما استطاع اليهِ سبيلا . ومن حق الحاج على سلفه ان يبيّن له خير الطرق للوصول الى مكة والمدينة ، ويشرح له الصعوبات ووسائل التغلب عليها . وكان أثر هذا الامر كبيراً في حفز الكتّاب الى تدوين ما لاحظوا ورأوا كابن جبير وابن بطوطة . وأما الناحية الثانية التي شجع الاسلام فيها الكتابة الجغرافية فهي طلب العلم . فقد كان المسلمون يتنقلون في سبيل انتجاع المعرفة من قطر الى آخر ، وكان علماؤهم يحرصون على تدوين مشاهداتهم ليطلع عليها الخلَف ويستفيد منها

ونحن اذا عرضنا الكتبة الجغرافية العربية وجدنا اقدمها لهم ما يقرب من الاربعين من كبار المؤلفين الذين وصلت الينا آثارهم ، عدا الذين لم يبقَ من كتاباتهم شيء . وقد تأثرت الابحاث الجغرافية في عهدها الاول بما وصل اليهِ اليونان من قبل . شأن بقية الابحاث التي أخذها العرب عنهم . فكتاب الكندي المسمى (رسم المعمور من أقصار الارض) هو ترجمة

(١) حديث ألقي في محفة الشرق الادنى للآداب العربية

لبطليموس اليوناني . وابن خرداذبه نقل بعض كتابه « المسالك والممالك » عن بطليموس أيضاً ثم أضاف اليه الخراج والطرق . على ما ذكره هو في مقدمة كتابه

على ان القرن الرابع للهجري يمثل في تاريخ البحث الجغرافي العربي فترة النضج . فاليعقوبي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي بلغوا درجة عالية في البحث المبني على الاختبار الشخصي ، والمعرفة المكتسبة من السفر والتنقل . وانتهى امر الكتابة الجغرافية في القرون الثلاثة التالية بأن كثرت المعاجم الجغرافية . فالبكري يفتتح كتابه بقوله (هذا كتاب « معجم ما استعجم » ذكرت فيه جملة ما ورد في الحديث والاخبار ، والتواريخ والأشعار ، من المنازل والديار ، والقرى والامصار ، والجبال والآثار ، والمياه والآبار ، والبلدانات والحزار ، مفروبة محددة ، ومبوبة على حروف المعجم مقيدة) . وياقوت الحموي في طليعة اصحاب المعاجم الجغرافية على الاطلاق . فكتابه معجم البلدان « خزانة علم وأدب وتاريخ وجغرافية : لانه اذا ذكر بلداً أورد شيئاً من تاريخه ، ومن اشتهر فيه او نسب اليه من الأدباء والشعراء والفقهاء . هذا بالاضافة الى مقدمة وافية في علم الجغرافية . والمعجم دقيق في معلوماته ، منظم في طريقته . وثمة ناحية أخرى من التصنيف الجغرافي حرية بالعناية . تلك هي الموسوعات الكبيرة التي ظهرت في القرن الثامن الهجري . فقد وصلت الينا كتب فيها التاريخ والادب والجغرافية وغير ذلك . ومن هذه « نهاية الارب » للنويري و « صبح الأعشى » للقلقشندي و « مسالك الابصار » لابن فضل الله العمري . فهذه الكتب المعدودة في مقدمة خزائن المعرفة تحوي فصولاً في الجغرافية العامة والسياسية تمدنا بكثير من معلوماتنا عن الدول الاسلامية وغيرها في تلك العصور

وتمتاز الكتب الجغرافية العربية وخاصة بعد تحررها من تأثير اليونان المباشر فيها ، بأنها تعتمد على المشاهدة الشخصية والحس . فاليعقوبي يقول عن نفسه « انه أسافر وحدث وسأل » وابن حوقل يقول (وأعانني على تأليفه اتصال السفر وانزعاجي عن وطني . . . . الى ان سلكت وجه الارض بأجمعه في طولها . وقطعت وتر الشمس على ظهرها) . والمقدسي فقد جال في البلدان ودخل اقاليم الاسلام والتقى العلماء وخدم الملوك وجالس القضاة ودرس على الفقهاء واختلف الى الادباء والقراء . وخطب على منابر . وساح في القراري . وناه في الصحاري وأشرف على الغرق وسجن في الحبوس وزاحم التجارة في كل بلد ، وعني بالمعاشرة مع كل احد ، وهذا الامر — اي العناية بالرحلة في سبيل التعرف الى البلدان والكتابة عنها — يضيق على العالم الاسلامي ذلك ان اكثر الكتاب عنوا بهذا الجزء من العالم . ومع ان بعضهم تحدث عن القسم الآخر ، فقد جاء حديثه متأخراً

والاصطخري يقول « ذكرت في كتابي هذا أقاليم الارض من ممالك وقصدت صقع بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما يعود بالاعمال المجموعة اليها . . . . . » . وابن حوقل يذكرنا

انهُ فصل بلاد الاسلام اقليماً اقليماً وصقعاً صقعاً وكورة كورة لكل عمل . وهذان الكتابان يبدآن الوصف بديار العرب ، لان القبيلة ومكة فيها ، وهي أم القرى ، وهي بلد العرب وأوطانهم ، ومثل ذلك المقدسي . أما اليعقوبي فيتخذ العراق نقطة ابتداء لكتابه (لانه وسط الدنيا وسرة الأرض) ويذكر بغداد (لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها)

ويعنى الجغرافيون العرب بالمسالك والطرق والمسافات لعلاقتها بالرحلة والتجارة والبريد وهذه عندهم صحيحة دقيقة . والمستعمل عندهم الفراسخ والأميال للقياس والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل يقل عن الكيلو متر قليلاً . ويستعملون المسافات الطويلة وحدة السير هي اليوم . فسوريا مثلاً طولها خمسة وعشرون يوماً . وقد وجدت بعضهم كالادريسي يذكر (يوماً طويلاً) في تعيين المسافات

ومن النادر ان يمر القارىء في كتب الجغرافيين العرب على احصاء يتعلق بعدد السكان ، او مقدار ما ينتج في صناعة معينة أو من زراعة معينة . على ان احصاءاتهم المتعلقة بالخراج وارتفاع الأرض المترتب على ذلك دقيقة صحيحة . فالارقام التي يوردها قدامة ابن جعفر عن ارتفاع السواد مأخوذة من القيود الرسمية السنة ٢٠٤ للهجرة . وهو يذكرها بالحنطة والشعير والدراهم . وقد نقل اغفل عن السلف في الكثير من الأحيان . فالبعض ذكر ذلك ، والبعض الآخر سكت عنه . وقد حذر المقدسي قراءه فذكرهم انه لم ينقل عن أحد ولكنه خبر ودوّن وكتب . وقد انتقد المقدسي كتب من سبقه من الجغرافيين . فمنهم « من كتب باختصار لا يفيد ومنهم من جمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها وكيف المسالك اليها . ومنهم من اختصر ولم يذكر الأسباب المفيدة » . ويقول عن ابن الفقيه الهمذاني انهُ (أدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم .... مرة يزهّد في الدنيا وتارة يرغّب فيها ودفعةً يُبكّي وحيناً يضحك ويباهي) . وهنا نلحظ المقدسي الجغرافي العالم الدقيق الذي يريد أن يكون البحث دائماً مبنيّاً على الدرس والاختبار منظماً مبوباً وافياً بحيث لا يخلط بين جد العالم وهزل الهازل . كما نلمس هذه الناحية فيه اذ يقول عند تقرير خطته (وفي كتابنا هذا اختصار لفظ يدل على معان . مثل قولنا . لا نظير له نريد ان ليس مثلهُ بتة . . . . فان قلنا غاية فانها تعني في الجودة من الاجناس) ولما جاء ابو الفدا تناول في مقدمة كتابه : تقويم البلدان ، من تقدمه من الجغرافيين بالنقد . فأظهر أن ابن حوقل والادريسي وابن خرداذبة لم يحققوا الاسماء وغيرهم لم يحقق الاطوال . أما هو فقد جمع بين التحقيق في الاسماء والاطوال . والواقع ان كتابه يصح ان يُعدّ تاريخاً انتقادياً للكتابة الجغرافية العربية الى عصره (القرن الثامن للهجرة)

وثمة مؤلف جغرافي آخر حري بالالتفات : ذلك هو الادريسي . صاحب كتاب : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . ألف هذا الكتاب بالعربية في صقلية في بلاط ملكها روجر الثاني وصاحبه لم يزر الممالك الاسلامية الشرقية لكنه كتب عنها ما حصل عليه من كتب الرحلات ورسائل الزوار . ومن الطبيعي ان يختلف الكتّاب في مقدار ما يخصص كل منهم للاقطار الواحد دون الآخر . فاليعقوبي يخص بغداد باثنتين وعشرين من الصفحات . ويفصل عن العراق اكثر مما يفصّل عن غيرها . بينما نجد المقدسي يعنى بالشام عناية خاصة لانه يعرفها معرفة تفوق معرفته لغيرها من الاقطار

والامور التي عني بها جغرافيو العرب في وصفهم سوريا هي (١) اسمها وسبب التسمية . ويجدر بنا ان نذكر في هذا الصدد انهم أشاروا الى سوريا بانها الشام (٢) حدود الشام . وفي هذا نجد ما يشبه الاجماع على ان الحدود تمتد من بلاد الروم شمالاً الى حدود مصر جنوباً ومن البحر المتوسط غرباً الى الفرات شرقاً . وهذه المسئلة ذات قيمة من نواح متعددة (٣) صفات سوريا البارزة وخصائص الاقليم ، من حيث المناخ والماء والارض والحبوب والثمار والزهور والحيوان (٤) اجناده أو أقسامه الادارية والموظفون وتوزيع الجيوش ومقدار الخراج (٥) مدنه وصناعاته وتجارته وتمركزها في هذه المدن

فأنت واجد ان ابن الفقيه ينقل عن عبد الله بن عمر (قُسِّمَ الخيرُ عشرةَ أجزاء فجعل تسعةُ أعشارِه في الشام وجزءاً في سائر الارض) . وتمر بك ملاحظةٌ دقيقة للاصطخري عن فلسطين إذ يقول (وفلسطين ماؤها من الامطار وأشجارُها وزروعُها اعذاء إلاّ انابلس فان بها مياهاً جارية . . . وتطلق تلك عند ابن حوقل هذه اللفظة عن أهل زُطّ بناحية البحيرة الميتة أو المنتنة ، انهم يلقّحون كرومهم وكروم أهل فلسطين كما تلقّح النخلُ بالطلع الذكر . . . وبها (أي زغر) من عمل البن والنحلة به ما لا يقصر عما يكايل من صنّاعه وعماله) .

ودرس سوريا عند جغرافي العرب يجب أن يكون مستهداه ما جاء في كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) للمقدسي) فالرجل سوري يعرف البلدَ وأهله . ومعلوماته ذات قيمة خاصة في درس الناحية الاقتصادية من حياة سوريا في ذلك الوقت . فقد تناول في كتابه سوريا بحدودها وقسمها الى ست كور وعدّد مدن الكور المختلفة ، ثم فصّل أخبار المدن هذه مبتدئاً بالعواصم وانتهى من ذلك الى جمل حال الاقليم . فهو يقدم البلد بقوله عنهُ (اقليم الشام جليلُ الشان ديارُ النبيين ومركزُ الصالحين ومعدنُ البدلا ومطلب الفضلا . به القبلة الاولى وموضع الحشر والنشر . وبعدد مشاهد الانبياء فيه ثم يقول (ومع كل هذا مشاهد لا تحصى ، وفضائل لا تخبو ، وفواكه ورخا وأشجار وأمنيا ، وآخرة ودنيا . به يرقُّ القلب وتنبسط للعبادة الاعضا . . . . ثم به دمشق جنة الدنيا . . . . والرملة المريئة

وخبزها الحوّارى ، وايليا الفاضلة بلا لاوى ، وحمص المعروفة بالرخص وطيب الهوا . . . . له سهلٌ وجبل وأغوار وأشيا . . . . وبه معادن الرخام وعقاقير كل دوا ، ويسار وتجار ولباقة وفقها ، وكتّاب وصناع وأطبا) . لكن الرجل ينعت الى أطراف الشام كما جاور الروم فيقول عنها (والاطراف قد خربت وأمر الثغور قد انقضى . . . . عامة أهلها جهالٌ أو غوغا لا نهضة في جهاد ولا حميّة على الاعدا) . فاذا انتهى من هذا التقديم المقتضب عرض لتسمية الشام وتحديدها ، ثم تناول وضعها الاداري فقسمها ست كور هي من الشمال الى الجنوب ، قنسرين وحمص ودمشق والأردن وفلسطين والشراة ، ثم عدد مدن الكور وذكر خصائصها وأعمالها وصناعتها وتجارتها . وطريقته أن يبدأ بالعاصمة ثم ينتقل الى بقية المدن . (فدمشق هي مصر الشام ودار الملك أيام بني أمية . . . . بناؤها خشب وطين . . . أكثر أسواقها منظمة وهي سوق على طول البلد مكشوف حسن . وهو بلد قد خرقته الانهار وأحدقت به الاشجار وكثرت به الثمار مع رخص أسعار وثلج وأندار لا ترى أحسن من حماماتها ولا أعجب من فوّاراتها) . والمقدسي يصف الجامع الاموي بدمشق والمسجد الأقصى وقبة الصخرة بالقدس وصفاً دقيقاً . وسبب ذلك ، فضلاً عن منزلة هذه الاماكن الدينية ، ان المقدسي كان بنّاء وكان جده كذلك قبله . فهو يحسن الفن المعماري ومن ثمّ كانت أوصافهُ هذه ذات قيمة خاصة لمؤرخ الفن العمارة الاسلامية

ويحدّثنا المقدسي عن منطقة الحولة ومدنها وكانت تابعة لجند دمشق ، فيقول (وبانياس على طرف الحولة وحد الجبل . . . وهي خزانة دمشق . . . غير ان ماءها ردي . . . والحولة معدن الافطان والازهار ، وهي أغوار وأنهار) . أما طبرية قصبة الاردن فهي ضيقة كريهة في الصيف مؤذية . . . بها حمامات بلا ماء . . . ويقال إن أهل طبرية شهرين يرقصون من كثرة البراغيث ، وشهرين يقمقمون أي يلوكون النبق وهو الدقيق المستخرج من لب النخلة والمقوي بالدبس ، وشهرين يثاقفون لأنهم يشغلون بقرد الزنابير عن اللحم والفواكه ، وشهرين عراة من شدة الحر ، وشهرين يزمرون أي يمصون قصب السكر ، وشهرين يخوضون الوحل لكثرته في بلدهم) . والرملة وهي قصبة فلسطين (ليس أرفقَ من كورتها ولا أنقَ من نواحيها . . . ذات فنادق رشيقة وحمامات أنيقة وأطعمة لذيذة وادامات كثيرة ومنازل فسيحة) . ومن الطبيعي أن ينال جند فلسطين من بين أجناد الشام حظّاً خاصّاً من العناية . فالمقدسي ابنهُ . ومن ثمّ كانت عنايتهُ بالصغير من بلدانه وقراه

وينتقل بعد ذلك صاحبنا الى جل شؤون الاقليم . فيتحدث عن طيب هوائه وتوسطه ، دون أن يغفل استثناء وسطه من الشراقي الى الحولة : فهو بلد الحر والقر والوخيل . ويلاحظ المقدسي امتدادَ غور الاردن جنوباً الى الحجاز . وثمة أمر ينبه له الكاتب وهو

انك كلما اتجهت شمالاً في سوريا ازدادت الانهار وكثرت المياه . ويذكر انه ليس في الشام نهر يسافر فيه . ويعدّد بعد ذلك في تفصيل ودقة عن تجارات الشام . فالبن يرتفع من دمشق وغيرها ، والسكر من صور . هذا الى أنواع الأقمشة المذكورة بأسمائها الدالة على تباين طرق صنعها . ثم يعدّد ثمارها فيذكر الأجاص الكافوري والتين النساعي والقلقاص والفليون . ثم ينتقل الى مكاييلها وموازينها فالصاع والمد والوَيْبة والمكوك والغرارة وأنواع الأوطال : موضحة

ويتحدّث المقدسي عن رسوم أهل الشام الدينية ، وعاداتهم الاجتماعية . ويروي الأمثال الدالة على الناس وأحوالهم . ويصف الأفرنة والطرابين وأنواع المآكل فيقول عنها (وبه) أي الشام ، طبّاخون للعدس والبيسار . ويقلون الفول المنبوت بالزيت ويصقلونه . ويباع مع الزيتون . ويطحنون الترمس ويكثرون أكله ويصنعون من الطرنوب طبقاً ... ويصنعون زلابية في الشتاء !

ولعلّ المقدسي أول من لاحظ التوازي في طبيعة سطح سوريا . فهو يقسمها الى السهل الساحلي وسلسلة الجبال والأغوار وسيف البادية . وهذه على ما اعتقد من أدق ملاحظات المؤلف

عاش المقدسي في القرن الرابع الهجري وكتب (أحسن التقاسيم) في أواخره . فالصورة التي نحصل عليها لسوريا هي صورة البلاد في زمن من أزهى عصورها وأزهر . ويحق لنا ان نغتبط لأن الحال أتاحت لنا مثل هذا الرجل ليدوّن لنا مرافق سوريا الاقتصادية في ذلك الوقت

فاذا انتقلنا الى ياقوت لقينا في مؤلفه معلوماتٍ عن سوريا في الزمن الذي كان فيه الصليبيون يحتلون بعضها الغربي . وهذه قيمة معجمه من الناحية التاريخية

أما القرن الثامن الهجري فشيخ مؤلفيه الجغرافيين أبو الفدا . عاش أبو الفدا في أوائل زمن المماليك وأرّخ لهم ، وكتب تقويم البلدان واصفاً فيه العالم الاسلامي بشكل خاص . وكانت سوريا من تحقيقه حظاً كبيراً . فهو ينقل في بعض الأحيان ما قاله المتقدمون ثم يعلق عليه بما يوضح الموضع في زمنه . ويتبع البحث العام بجداول يفصل فيها عن كل مدينة الطول والعرض والاقليم ويضبط الاسم ثم يسوق أوصافاً وأخباراً عامة عنها . ولا يغفل ذكر مصادره

ليس من المستطاع ان يتناول المرء في مقال يشغل صفحات معدودة موضوعاً كهذا الاّ من أوسع نواحيه ، وأكثرها شمولاً . فالمكتبة الجغرافية العربية واسعة كما ذكرت ، شاملة لأنواع من الدرس والبحث ، حرية أن يتوفر الناس على درسها ويعنوا بتتبعها . وأؤكد لحضرات القراء أن العمل فيها مرجوّ الفائدة واللذة